

## من التطرف إلى الحوار

### الجزء الثاني

#### الإمام الشهيد البوطي

#### والآن ما عوامل القضاء على التطرف أو الإرهاب الديني؟

كان لا بدّ من بيان هذه العوامل الكامنة وراء ظاهرة العنف غير المشروع دينياً، لكي يتبين على ضوءها المنهج الأمثل لوضع رؤية مستقبلية تضمن حلّ مشكلة العنف هذه.

إن المنهج الأمثل – بكلمة موجزة – للقضاء على هذه المشكلة هو السعي التعاوني إلى القضاء على العوامل الثلاثة التي هي سبب المشكلة.

وبوسعنا أن نشرح هذه الكلمة الموجزة من خلال عرض النقاط التالية:

١- ينبغي أن تكون الحكومات الإسلامية، وأخص منها العربية، أكثر اهتماماً وجدية في رعاية المبادئ والأحكام الإسلامية على أرضها وبين رعاياها، فضلاً عن أن عليها أن تكف عن الدعوة إلى النظام العلماني.. إنها عندما تضاعف من اهتمامها الجادّ بهذا الأمر بضوابط علمية معتدلة سليمة، فلسوف تمتص بذلك قدرًا كبيراً من عوامل التشنج التي تتجمع في نفوس الشباب الذين تجتاحهم عاطفة الانبعاث الإسلامي، ولسوف يفقدون ما كانوا يتخيلونه من شرعية تطرفهم الإرهابي باسم (الجهاد).

٢- إن اليأس من جدوى النظام العالمي الجديد، الذي تطور إلى ما يسمى (عولمة) والذي ما زال ينجح إلى التحيز في كل شيء، ويكيل بمكايل متناقضة شتى طبق ما تمليه مصلحة ١١% من سكان العالم، سواء فيما يتعلق بالمشكلات السياسية أو الاقتصادية أو الأخلاقية أو التربوية العامة، يجب العمل على معالجته طبق خطة استراتيجية، لا تحتل التواني والتأخير.

إذ إن هذا اليأس إذا تفاقم سيتحول ألياً إلى وقود لتأجيج نيران التطرف في سائر أنحاء العالم. ولسوف يعبر هذا التطرف عن نفسه بتعابير شتى، حسب طبيعة المكان والثقافة والمناخ. وربما كان ذلك بذور اغتيال الحضارة الغربية عاجلاً أم آجلاً.

إن صلحاً حقيقياً يتم بين شطر الشمال والجنوب من العالم، قائماً على ضوابط العدل الحقيقي، محتكماً إلى جامع مشترك من الأخلاق الدينية (ومن ثم الإنسانية)، من شأنه أن يخفف من ضرام هذا اليأس، إن لم نقل: إن من شأنه أن يجتثه من النفوس، ومن ثم من شأنه أن يقضي على فدر كبير من عوامل التطرف.

إن الضغط إذا من شأنه أن يولد الانفجار، كما يقولون، فإن الظلم هو الذي يولد الضغط. والظلم في عالمنا اليوم إنما تمارسه الأقلية القوية ضدّ الكثرة المستضعفة. والتطرف اليوم له مظاهر منتشرة هنا وهناك في جهات العالم الثالث، ولكن له جذوراً مهيجة تبدأ من هناك، حيث القوى المتحكمة بناصية السياسة والاقتصاد، ساعيةً سعيها اللاهث إلى أن تتحكم حتى بالمصير.

إن الدين السماوي إذا ترك وشأنه، ومارسه أهله ممارسة حقيقية دون وجود من يستثيرهم ويضيق عليهم، لن يهدي إلا إلى الحب، ولن يمدّ بين الناس إلا جسور التعاون. أي: إن المشكلة ليست في جوهر الدين، ولكنها تتمثل في الطريق الضيق المظلم الذي يُلجأ المتدينون إلى السير فيه.

ومع ذلك، فإن الذين يضبطون أنفسهم من التوجه الإسلامي بضوابطه العلمية، ويمارسون قدراً كبيراً من البطولة في الثبات على النهج السليم، ويتسامون جهد استطاعته فوق عوامل الاستشارة والتهميش، كثيرون. ولكن كثرتهم، لأمر ما، لا تلفت النظر.

هل أضعكم أمام مثال حيّ؟.. حسناً، إن التوجه الإسلامي في تركيا يهيمن اليوم على حال غالية الشعب التركي. وهو إلى اليوم لا يحاول التعبير عن وجوده والقيام برسائلته إلا من خلال ممارسته لحقوقه الإنسانية في حرية التعبير واتخاذ القرار.

غير أن القوى الأجنبية التي تصر على أن تتحكم هي بالأمور، ترى في التوجه الإسلامي، من حيث هو، خطراً على مصالحها. فهي توحى إلى رسلها وعملائها في تركيا أن يضيقوا السبل على تلك الغالبية، وأن يستثيروا في نفوس أفرادها عوامل التطرف والانزلاق إلى الأعمال الانتقامية كي تلتصق بهم جريمة الإرهاب!.. وإن المراقب لحال تركيا اليوم عن كتب يلاحظ كيف أن القوى الأجنبية ماضية في استشارة الإسلاميين وإجرائهم إلى التطرف بأقصى السبل الممكنة، ويلاحظ في الوقت ذاته كيف أن الإسلاميين هناك يمارسون بطولية نادرة في الانضباط بالنهج الإسلامي السديد والبعد عن الانزلاق في أي غلطة تشوه وجه الإسلام الحف أمام الناظرين. هذا على الرغم من أن الاستفزاز المستمر للدافع إلى التطرف يلاحقهم من كل جانب.

### والآن.. من التطرف إلى التعاون والحوار.. كيف؟!..

لقد آن للغرب، وللغرب الأمريكي خاصة، أن يعلم أن مشكلته لا تكمن في الإسلام، لا الإسلام الوافد إليه من الخارج ولا النابع عنده من الداخل.. وإنما تكمن المشكلة في الأمراض الاجتماعية الكبرى التي تحتاجها اليوم، والتي تهدد الحضارة الغربية من جذورها.

إن على الغرب الأمريكي أن يعلم أن جيله النامي الجديد، جيل المخدرات.. جيل ضياع عن حصن الأسرة والتائه بين اللاأدرية الموحشة.. جيل الأمراض النفسية المستشرية.. ليس مؤهلاً قط لأن يرث شيئاً من مسؤوليات القيادة السياسية، ولا الفكرية والعلمية ولا الرعاية الاجتماعية.. وإن الغد القريب سيكون خير شاهد على ما نقول.

وليعلم الغرب، عندما يتبين هذه المشكلة ويقدرها حق قدرها، أن العلاج واحد لا ثاني له. إنه يتمثل في التلاقي على الدين الحق، عندما يتحقق الإخلاص في اعتناقه وممارسته.

وسبيل ذلك أن تتلاقى جهود الرعاة المخلصين للدين الحق (وهو دين واحد في أصله وجذره) من مسلمين ومسيحيين بل ويهود أيضاً، ممن تحرروا من النزعة الصهيونية التي جاءت شؤماً على اليهودية كدين مجرد، قبل أن تكون شؤماً على أي شيء آخر.

ولا شك أن فيكم من يسأل: فما السبيل إلى مدّ جسور التعاون الحقيقي بين المسيحيين والإسلام قبل أن نضيف إليها اليهودية شريكاً ثالثاً؟

والجواب أن السبيل موجود ومعبد، يعرفه، بل يتعشقه كل من كان صادقاً مخلصاً في إيمانه بالله وفي محبته له.. ويتلخص هذا السبيل في التركيز التعاوني على الجذور الجامعة والمشاركة بينهما، وهي تشكل منطلقاً جاداً ذا أهمية كبرى، إن خلا من شوائب الخلفيات السياسية والمصالح المحورية المستغلّة.. وضمانة هذا الشرط الإخلاص لوجه الله عز وجل.

أما الفروع الخلافية فسييل معالجتها هو الحوار، على أن يتصف طرفاه بالندية المتكافئة في الظروف والإمكانات والدوافع والمنطلقات.. وعلى ألا يتغنى من الحوار إلا البحث عن الحق، بأسلوب من الاحترام المتبادل، بل من المحبة الحقيقية المتبادلة.

ولعلّ القرآن رسم أدقّ دستور لهذا المنهج الحواري، وذلك قوله عز وجل:

**(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)**

وهذا المنهج التعاوني والحواري ينطبق على واقع حال المسلمين مع المسيحيين في البلاد العربية والإسلامية، كما ينطبق على صلة ما بين المسلمين والمسيحيين في العالم الغربي بكلا شطريه الأوروبي والأمريكي. أي يجب تطبيق هذا المنهج على علاقة ما بين المسلمين والمسيحيين أينما وجدوا.

إلا أن من أهم ما ييسر تطبيق هذا المنهج التعاوني في أوروبا مثلاً، التقاء المسلمين والمسيحيين على جامع مشترك يحقق لهم مشروع الاندماج في نظم مجتمع إنساني أفضل فوق هذه الأرض الأوروبية. ولعلّ أفضل جامع مشترك، يتمثل في ضرورة احترام المسلمين للنظام الأوروبي الساري، الذي يظلمهم وسائر المواطنين الأوروبيين الذين يعيشون معهم على أرض مشتركة.. على أن يحترم كل طرف خصوصيات الدين لدى الطرف الآخر، وألا يتجاهل النظام الأوروبي حقوق هذه الخصوصيات، مادام ذلك لا يضر بالمصلحة الوطنية العامة.

إن وجود الجاليات الإسلامية اليوم في بقاع أوروبا على اختلافها، وتكاثرها يوماً بعد يوم واقع لا مفرّ منه، تلخّ عليه مصالح كثيرة مشتركة.

ولكي يكون هذا التلاقي لمصلحة الجميع، لا بدّ من اتباع نظام تعاوني جادّ، يعين على الانسجام والاندماج اللذين يحافظان على الهوية والذات.. ومن ثمّ يحقق المصالح المشتركة. غير أن هذا النظام لا يؤتي ثماره المرجوة إلا من وراء اعتراف حكومي رسمي بالإسلام ديناً سماوياً، له خصوصياته التي ينبغي مراعاتها، والتي تشكل جزءاً من حقوق الإنسان. ولعلّ بلجيكا مثال يحتذى في هذا المجال.

وفي ظل هذا التآلف التعاوني، تغيب سائر التشنجات النفسية والفكرية التي قد بعثت على التطرف والعنف. وسيتشكل تيار تعاوني واحد يمثله الجذع الديني الجامع لفروع الديانات المتعددة، يقف بنجاح في وجه التطرف وأسبابه.. هذا، على أن يؤخذ بعين الاعتبار ضرورة تنفيذ الشرطين اللذين ذكرناهما.

وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن العلاقات الإسلامية المسيحية في أوروبا، تتلون إلى حدّ كبير بلون هذه العلاقات ذاتها في بلادنا العربية والإسلامية، كما أنّها تتأثر بمدى ظهور أو غياب التطرف في البلاد العربية ذاتها.

أي: إن الأمر إن عولج بالطريقة التي ذكرناها الآن، في بلادنا العربية والإسلامية، فلسوف يهون الخطب هنا، ويحلّ الانسجام والوئام محلّ التخوف وأسبابه.

ولكن في أوروبا أفواهاً من الغرب تنفخ في نيران التطرف وأسبابه في الشرق، في شرقنا العربي والإسلامي. في الوقت الذي تتحرك ألسنة هذه الأفواه باستنكاره والبحث عن السبل التي تقضي عليه!.. زارني مسؤول دبلوماسي كبير في واحدة من أبرز السفارات الغربية، وسألني قائلاً:

إنني ألاحظ أن الأنشطة والتوجهات الإسلامية تأخذ مدى وحظاً كبيراً يلفت النظر في سورية، أليس كذلك؟ قلت: نعم، ربما كان الأمر كذلك.. قال متعجباً: فلماذا لا تبرز ظاهرة العنف والتطرف هنا، كما تبرز في جهات كثيرة أخرى؟!..

لقد كان واضحاً أن الرجل يعبر بسؤاله هذا عن أسفه لعدم اندلاع ظاهرة العنف، والتطرف عندنا. قلت له: إن حوافز الدين عندنا ليست محصورة في عاطفة هوجاء. وإنما هي قائمة قبل ذلك على ضوابط الوعي الإسلامي، وكوابح المعرفة بقواعد الدين وأصوله.

وقلت له: إن الوعي الديني الذي يمتاز به رجل الشارع في سورية، قد أكسبه قناعة تامة بأن أي تطرف ديني يظهر في بقعة ما من بقاع عالمنا الإسلامي، إنما يتم تصنيع أسبابه وتحضيره هناك في الغرب، ثم إنه يبعث به عبر أقية خفية إلى هنا، بشتى وسائل الاستفزاز والاستثارة التي أصبح أكثر (سيناريوهاها) محفوظة ومدروسة.

أعود فأقول: عندما تختفي عوامل التطرف من النفوس (ولن يزيلها إلا الوعي الإسلامي السديد) يتمكن الدين الحق من أن يلعب دوره القدسي في النفوس، فيسمو بها فوق ظلمات الضغائن والأحقاد، وينشر في أعماقها ولن يزيلها إلا الوعي الإسلامي السديد) يتمكن الدين الحق من أن يلعب دوره القدسي في النفوس، فيسمو بها فوق ظلمات الضغائن والأحقاد، وينشر في أعماقها إشراقة الحب والوداد لسائر الناس. وعندما يسعى أصحاب هذه النفوس سعيهم في الدعوة إلى الله، فبدافع من الغيرة على عباد الله والشفقة عليهم يتحركون ويدعون.

أجل.. عندما تختفي التشنجات الحقدية والعصبية الباعثة على العنف والتطرف، يشرق عندئذ في النفوس معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)) ومعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله رفيق يحب الرفق في الأمور كلها)).

غير أن هذا الصفاء في العلاقة والتعاون، لا يتهدده إلا شيء واحد، هو العبث الذي نعلم أنه يتسرب إلى هذا الصفاء عن طريق أيد أجنبية معروفة، تضيق ذرعاً بالوئام الذي يبعث على الوفاق والاتحاد، وتحلم دائماً ببعث أسباب الخصومات والشقاق.. ولكم بلونا من هذه الأيدي الأجنبية الشيء الكثير.

أختم موضوعي بالحصيلة المكثفة التالية:

**أولاً:** لكي تصنفو سبل التعاون المنطلقة من الجذور الدينية الجامعة، من سائر الشوائب العصبية والنفسية يجب إبعاد هذه السبل التعاونية عن التيارات السياسية كثيراً ما تستغل الظواهر الدينية والإنسانية لحسابها. يجب العمل على أن يكون سلطان البواعث الدينية هو القائد والمهيمن، بدلاً مما يجري في كثير من الأحيان من هيمنة سلطان التيارات السياسية المختلفة، بل المتناقضة.

**ثانياً:** ينبغي تقييد العواطف الإسلامية كلما احتاجت في نفوس أصحابها، بقيود الضوابط العلمية التي لا وجود للإسلام إلا على أساسها. وعندئذ يعلم أصحاب هذه العواطف إن الإسلام ليس ذلك الذي يتم لصقه بالناس وفرضه عليهم بالقهر والإلزام. وإنما هو تلك القناعة الربانية التي تسري إلى عقولهم بمحض الرغبة والاختيار.. وسبيل ذلك، الحوار التعاوني الذي يتغني منه البحث عن الحقيقة، والسير التعاوني من أجل اكتشافها ثم التعامل معها.

**ثالثاً:** لا بدّ من توافر الإخلاص لله عز وجل، حيال كل أنشطتنا الدينية والاجتماعية الكثيرة، وإنه لدواء رائع فعال لو أمكن العثور عليه. ولكن الإخلاص لله كما قال الربانيون سرّ يودعه الله في قلب من أحب من عباده. فاللهم اجعلنا ممن أحببتهم فأحبوك، حتى نخلص لك.

**رابعاً:** وأخيراً لا بدّ لهذه الدول العظمى، وفي مقدمتها أمريكا، أن تكفّ يدها عن التلاعب بصلة ما بين الأشقاء والجيران، وأن تزيد المياه الصافية فيما بيننا صفاء، لا أن تكدرها لتصطاد فيها.. ولكن أئني يتم هذا والصهيونية العالمية تأتي إلا أن تتحكم بناصية السياسة الأمريكية، بل أن تتحكم حتى بهدى الديانة اليهودية التي هي واحدة من فروع الكتب السماوية المنبثقة عن جذع الدين الواحد.

أنهي البحث بكلمة رائعة، لباسكال يقول فيها:

((السعداء في الدنيا طائفتان: طائفة بحثوا عن الله حتى عرفوه، فهم منصرفون عن لذائذ الدنيا كلها إلى خدمته وعبادته.. وطائفة جادة في البحث عن الله والعمل على التعرف إليه.. أما الين تاهوا وشقوا في مناكب الأرض فهم أولئك الذين لم يهتدوا إلى الله، ولا هم جادون في البحث عنه)).